محمد الحارثي

عودة للكتابة بقلم رصاص





الغلاف: كولاج يمازج آلة كاتبة كلاسيكيَّة ماركة *Hermes* و أبجديّة شعب لاوس *Laos*

محمد الحارثي

عودة للكتابة بقلم رصاص

شِعر



محمد الحارثي

عودة للكتابة بقلم رصاص

شِعر



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت ـ لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-390-5

الطبعة الأولى 2013

المحتويات

كُتبت قصائد هذه المجموعة على فترات متقطعة بين ربيع 2005 وشتاء 2012

الأوّل

صافِرةُ المَلاك

من أنتَ في مِرآة الجُملة؟ بدايتها أم نهايتها
المُنعكسة على صفحة التيار . .
وماذا لو جَدَلًا كنتَ مِرآتَها ـ هل سينقلبُ مِفرَشُ الآية؟
هل ستقومُ القيامةُ؟ . .
أم ستؤجِّلُها صَافرةُ المَلاكِ حتى ترى نجمةُ الليالي انعكاسَها
على صفحة الماء في بُحيرة الكلمات قبل عودة التيار بشِبهِ جُملةٍ
قد تُقرأُ بالطول (وليس بالعَرض) كي تطول لعبة المرايا . . .

ولكن من أنت في المرايا المنعكسة على الصَّفحة بعد رحيل التيَّار؟
بدايتها أم نهايتها ـ من أنتَ؟ حين يفتح تمساحُ الكلمات فكَّيهِ
لالتهام نجمةٍ قد تتلألأ كما تلألأَ تكرارُ اللامِ وألِفها المَهموزة . . .
قد تتلألأ لحظاتٍ، قد تتلألأ دَهرًا ـ لكنك لن ترى انعكاسَها
حين يتدفق التيَّارُ في بُحيرة الجُملة التالية .

قاربُ الكلمات يَرسُو..

عجيبٌ أمرُ ثلاثتِهِم:

الفأرةِ، لوحةِ المفاتيح ومُعالج الكلمات الذي لا يُعالجها

بل يفعل العكس تماماً حين يُنسيني حفظها

في الملفِّ الصحيح. .

لتقفز أيقونةُ المَلامة على الشاشةِ

قبل أن ألوم نفسي، مُعالجَ الكلمات والفأرةَ اللعوبَ إثر اختفاء

أكثر من قصيدة ليلٍ في شُموس الصَّباحات التالية. .

أعيتني أيقونةُ الملامةِ على صَفحة الشاشة ففكرتُ بالبحث

عن آلةٍ كاتبة (كتلك التي استخدمتها ڤرجينيا وولف) لا تملُّ

من عزف سيمفونيَّتها الصدَّاحةِ ببُطءٍ يتسارعُ

أو بتسارعٍ يتباطأُ إيقاعًا مع ضربات الأصابع. . .

لكنَّ تلك الآلات الفاتنة اندثرت في أيامنا هذه

وبالكاد يلمحها المرءُ

تندبُ حظها (تحت الحِراسة المُشدَّدة) في مَلكوت
مُتحف لا يُزار.

كدتُ أرفعُ الرَّايةَ، كدتُ أرفعها استسلامًا
لكنني آثرتُ الانصياع لنصيحة هيمِنغواي
وعُدتُ للكتابةِ بقلم رصاص
عَبرتُ بمجذافه المَبريِّ أكثر من صفحةٍ ليرسو قاربُ الكلماتِ
أخيرًا على ضفةِ الوُصول ـ لولا أنني حين تماديتُ
في مُجاراةِ صاحب النصيحة بالكتابة واقفاً مِثلَهُ على الحائط
فشلتُ في إتقانِ جُمَلِهِ القصيرة.

العُكّاز ودائرته المُقفلة

«لا تشرعين في العمل من دون دعوة:
كلُّ جسرٍ يُولد كاملاً، جاهزًا أمام العابرين.
لأنكِ دائرةٌ مقفلة تمشي على عُكّان، لا تعرفين إلاّ شيئًا واحدًا:
الوُصول».

سركون بولص

حين قرأتُ هذه القصيدة القصيرة، هذه التي كان عُنوانُها
في ديوان «الأوّل والتّالي»؛ كالتّالي:
«إلى الواو، بانية الجُسور الخالدة»؛ ـ
حين قرأتها المرَّة تلو المرَّة كنتُ قد ضَربتُ كالميكانيكيِّ على
استخدام صامُولةِ الواو لربط الجُمل واحدةً تلو أخرى في
جراج الكلمات هذا، دونما انتباه لأهميَّتها
في بناء تلك الجُسور الخالدة
لأنها عن قصد تتوارى في دائرةٍ صغيرة لا تنتهي إلاّ بعُكّاز
لم يَتبختَرْ في هذه الفصحى إلاّ بها..

كأنما ليَضمنَ وُصُولَها قارئًا قد لا يلتفتُ

لأهميَّةِ الجسر وتوصيلته المَجانيَّةِ

حيث على العُكّاز أن يستريح وينطوي

تلقائيًّا كالحلزون على دائرته

لتنتهي الرِّحلةُ، لتنتهي بنقطةٍ لا مَفرَّ مِنها

في آخر السَّطر.

الصَّائت والصَّامِت

«إنّ مُعظم الكلمات التي اكتبُها لا تنسجم مع بعضها بعضًا. إنني أستمع إلى الحروف الصَّامتة وهي تحتكُ ببعضها بعضًا على نحو صَفيحيّ، وإلى الحروف الصَّائتة وهي تُغنّي وكأنها زنجيٌّ في المعرض».

فرانز كافكا

هذا ما كتبه كافكا في يوميَّاته التي لم يحرقها
ماكس بْرُود لحُسن الحظ. . .
بيد أنهُ لن يُثمِّن خسارتنا الفادحة لما كان يشكو منه
في زمن حواسيبنا السَّخيفة هذا
بعد أن طلَّقنا الثالوث المُقدَّس للصَّائت والصَّامت:

الصَّرير البدائيّ لأقلام الرَّصاص
دمعة قلم الحِبر
والطقطقة العذبة للآلات الكاتبة
بعد أن أحلناها للتَّقاعُد المُبكر.

لوحة مفاتيح ذكيَّة في سَرنديب

(اعتذار مُتأخر إلى والت وِتمان)

«إلى أين نذهب، والت وِتمان؟ الأبوابُ ستُغلَقُ في مدى ساعة.
إلى أيِّ طريقٍ تُشيرُ لحيتكَ الليلة؟».

آلَن غينسبرغ

بعد إدماني الحواسيبَ النقَّالة يا شيخي والت وِتمان
قرَّرتُ العودة للكتابة بقلم رصاص، دونما اكتراث لضربات
الآباء السّرياليِّين اكتفاءً بشيمتين ثمينتين بسيطتين:
امتداح صرير أقلام الرَّصاص
وطقطقة الآلات الكاتبة التي استخدمتَها
قبل أن نُفجع بانقراضها السَّريع بُعيد مُنقلب الألفيَّة الثالثة
برغم أنني ورثت واحدةً من أبي لأتلذذ أيَّام الشباب
بطقطقة مفاتيحها
راقنًا قصائد عموديَّة كنتُ أقلِّد فيها الشعراء الجاهليِّين.

بيد أن الحواسيب النقالة أضحت زادًا ومؤونة
لا غنى عنهما في الحِلِّ والترحال. .
وبسببها عادت محاكم التفتيش من جديد
وصارت كِلابُ المطارات البوليسية تتشمَّمُها
بعد أحداث 11 سبتمبر، كأنها «تولات» حشيش مُهرَّبة
من العالم الثالث إلى فراسة قصيدةٍ كُتبت لتقريظ
قصيدتي «أميركا» و«عُواءِ» حفيدك آلَن غينسبرغ
بعد أن هبطتُ، ذات صباح، من طائرة كانت في طريق العودة
من أرخبيلات فراديسها المُعتقة إلى مسقطها هذا
لأبصر في لؤلؤة العودة نجمةً تلألأت سلفًا في عيني صديقي
البدويّ في الرِّمال
بعد أن تركنا خيمته وناقته الرُّعبوب لنمتشق واحدةً من
سيارات الدفع الرُّباعي في رحلة صيد
لأرانب الكلمات المُخاتلة.

(تمامًا كما فعلتم في عصركم، حين تركتم أحصنة رُعاة البقر
وامتشقتم صفير القاطرات البُخارية).

بيد أنك لا تعرف يا شيخي، لا تعرف خيانتي لك وللمُتنبِّي

الذي ربما تناهت إليك أخبار سيفه وقلمه
في بوادي العالم الجديد
ذاك الذي كتب قصائده على غُرَّة حصانه الملأى بالفراشات
كلحيتك الكثَّة بفراشاتها التي أُسْطِرَتْ في أنطولوجيات
الشعر الأميركي بعد رحيلك عن هذه الفانية.

* * *

نعم، نعم طلقتُ الحواسيب عودةً لبساطة الكتابة بقلم رصاص
«لأنَّ في الخمر سِرًّا ليس في العِنب»
لكنَّ رَبعي المُتربِّعين في مقاهي الفيسبُوك أغروني مُؤخرًا
باقتناء حاسوب التفاحة اللوحيّ
برغم يقيني بلا جدوى تفاحة مقضومةٍ سلفًا
ولا بآخر بدائل سامسُونغ اللوحيَّة المُنافِسَة
(لا سيَّما، بعد رحيل ستيڤ جُوبز)...
وحين تعلَّلتُ بفشلي الذريع في استخدام
لوحة المفاتيح المُنزلقة تلقائيًّا
من الشاشة لم يقتنع الرَّبعُ؛ فقالوا يأسًا مني ومن قلم الرَّصاص:
«لا بأس أيُّها الشاعر المُتفنِّق في جاهليَّته الثانية

سنؤازر حاسوبك اللوحيَّ بلوحة طباعةٍ ذكيَّة تنقسم نصفين، دونما حاجةٍ بك لقضم تفاحة ستيف جُوبز في مُخيخ مُخيِّلتك التي عَشَّشتْ فيها عموديَّات المُتنبي

مدَّاح المُلوكِ والعبيد ذاك. . .

خذ لوحة المفاتيح الرَّقيقة هذه وضعها بعد طيِّها في جيب قميصك كأيِّ هاتف نقال بعد عودتك من خيمةِ صديقك البدويِّ الذي ترضعُ حليبَ ناقته؛ وامضِ في رحلةٍ إلى هاواي أو إلى واحدةٍ من جُزرك العذراء التي لم تكتشفها بعد».

* * *

هكذا عدتُ لاستمراء قيلولات ساحليَّة

في رحلةٍ إلى سَرنديب أتمرَّن خلالها

على إجادة استخدام لوحة مفاتيح البلوتوث

تحت نخلةٍ جوز هندٍ باسقة

جعلتني أصدِّقُ وأكذِّبُ ما أخفاهُ بيتُ

أبي عُبادة الوليد بن عُبيد:

«يُخفي الزُّجاجَةَ لونُها فكأنَّها   في الكَفِّ قائمةٌ بغيرِ إناءِ»

لأعود بعد تلك القيلولات السَّاحليَّة بقصائد نثر وقصائد عموديَّة
أتسلى فيها بوَصف الرَّشأ الغُلام والرَّشأ الغُلامَة، فضلاً عن كتاب
رحلات يُحاولُ عُكَّازاه بَخترَةَ مفاتن جزيرة سريلانكا، واصِفًا
(كأنني البُحتري) حقول الشاي ومعابد بُوذا وحديقة بيت محمود
سامي البارودي الذي نفتهُ حماقات الإنكليز الكولونياليَّة
إلى نعيم ذلك الفردوس...

مُتقهقِرًا عن مدائحي الرُّومنسية للآلات الكاتبة وقلم الرَّصاص
الذي تعوَّدتُ سماع صريره في «أوراق العشب»
التي خُنتها كما خنتُ حصان المُتنبي
لأتركه وحيدًا في براري البرابرة.

هكذا، هكذا بضغطةِ زرٍّ على لوحةِ مفاتيح
مطويَّة في جيب قميصي.

فأس التشذيب هذه..

«لا أهتم بالقوافي. من النادر أن تجد شجرتين، جنبًا إلى جنب، مُتساويتين».

فرناندو پيسّوا

تعليلك بديعٌ ومُقنِعٌ يا شاعر اللاطمأنينة
مُقنعٌ وبديعٌ تعليلك العليلُ هذا؛ لأقتفي خُطاك
مُطمئنًا في الوصول عاريًا
إلى عُذوبة نهر الخطيئة الدفَّاقِ بكمالِها؛ بيد أن الكلمات
تخذلني أحيانًا
لتصطفَّ تلقائيًا في قوافٍ بعد أن تزنَ أمواجَ بُحورها
في ميزان فَراهيديٍّ معطوب؛ لولا عمليَّات قيصريَّةٍ
يستمتعُ أتباعهُ
بإجرائها مجانًا في مُستشفيات الطُّمأنينة.

قد أخذلُ الخليل بن أحمد، قد أخذله لكنني لن
أخذلك في هذه القصيدة
فالعلاقةُ بين الشجرة والفأس ليست جَبريَّةً دائمًا
لذلك سأرتاح اليوم بين شجرتي الأمثولة
لأتشرَّبَ قهوةَ التَّعليل
وقريبًا، قريبًا سأتخلَّصُ من فأسِ التشذيب هذه.

المُصطفى

تُنشِدُ أثوابُنا مَدائحَهُ بألسُنٍ ما لهُنَّ أفواهُ
إذا مَرَرْنا على الأصَمِّ بها أغنتهُ عن مَسْمعَيهِ عَيناهُ

المُتنبّي

يا مالئ الدُّنيا ويا شاغلَ الناس:

اصطفيناك في آخر الزمان؛ لا لمُطوَّلاتِك

التي أعيتنا الحيلةُ فيها

ولا لمدائحكَ في هذا وذيَّاك من نُبلاء العبَّاسيِّين أو أوغادهم

بل لبيتين قَدَحْتهُما بزناد الفنتازيا

بأذُنيه يراهُما الأعمى وبعينيه يسمعهُما الأصَمُّ

حتى إنَّ الشعراء السّرياليين

(بألسُنٍ ما لهُنَّ أفواه) انتسبوا واحدًا

بعد الآخر لمُعجز أحمدَ الفتَّان بعد أن هداهُم

إليه أندريه بروتون على ضِفاف «السِّين» في مكتبة شِكسبير

ليضربوا عرض النَّهر بلاهوتِ مُعجزاتٍ

مَسكوبٍ من فمِ الرَّب.

استراحة في حديقة الوقفات

«الوقفات تغدو شيئًا أشبه بالاستراحات، ولا يمكن أن يستغني المرءُ عنها في القراءة؛ إن شاء أن يُعاني بصورة كاملة اللحظةَ الشعريةَ التي تتدفق من كلِّ بيت شعر مُستقلاً عن الانسجام الهارموني الكُلّي للقصيدة؛ فالوقفة ليست وسيلة طباعية، بل هي بالأحرى حالة سيكولوجية. وهي في بعض الأحيان أهم من بيت الشعر الذي يسبقها».

الشاعر البيروفي ألبرتو إيدالجو

سأستريحُ أيها الشاعر، سأستريح..

سأقتفي إرشادات الطريق ـ تعثرتُ أم لم أتعثر بحَصبائها

ولن أكفَّ عن إضافةِ أكثر من حَجَرِ عثرةٍ

بعد عُبور العَتبة:

حَصاةِ وقفةٍ ملساء لالتقاط الأنفاس بين الجُمل اللاهثة

أو صخرةٍ لم تزل في طريق هاويتها

قبل أن يتأرجحَ مصيرُها في كُتلة الفراغ
الذي نَسيتْ تلوينهُ ريشةُ الرسَّام
بين حَجَر وليَم بَتْلَر ييتسْ وجلمود مُعلقة امرئ القيس. . .
حيث كلُّ قصيدةٍ قبل ولادتها حملت في أحشائها
الأحفادَ والأسلاف ـ قصُرتْ أم طالت العثراتُ
بين بيت وآخر. . .

لسببٍ أو دونما سببٍ تلألأتْ فيه
ـ جُملةٌ مُعترِضةٌ ـ
قد تبطئ مجرى السَّيل، قد تبطئ مجراه ليتدفق سيَّالاً
إن لم تتلقفهُ الأقـ(الفاتحة والغالقة)ـواسُ
إن وُجدتْ!
وإن لم تُوجد؛ فالمَصيدة كامنةٌ بين السُّطور
تُخفي أو تُظهِرُ انقطاعًا مُفاجئًا لوتيرة الإيقاع.

دعك من الأسطر المنقوطة
(الأسطر التي لا تقول شيئًا)
. . . .
. . . .

مع أنها تقول كُلَّ شيء في حديقة الوقفات
ما يُستغنى عنهُ وما لا . . .
لأنها ملاك القصيدة الحارس
في مُراهنات الأبديَّة لا تكتفي بديمومةِ حَجرِ أو حصاة
لتحيا القصيدةُ لتحيا
كُلَّ يوم حياتها التي لا تنتهي بين صفحات الكتاب.

حيلة بَدويَّة

ما أدهى بُداةَ الصَّحراءِ حين يَعودون مريضًا
لهم في مشفى المدينة:

يتحلقون حول سريره طوال ساعات الزيارة (قبلَ أن تطردَهُم المُمرِّضة الفِلبِّينية)، ليتسامروا تحت شجرة في باحة المشفى حول فناجين القهوة وتمرهم المَدلُوك تفصفِصُهُ الكلماتُ والأصابع لاستنباط نُويَّاته حتى تفوتهم آخر صلوات العشاء.

... ولأنهم لا يعرفون مكانًا للمبيت يتسللون في الليالي القائظة للنوم في مسجد المشفى بعد أن يُعيدوا تشغيل مكيِّفات الهواء. لكن مُؤذن المَسجد لا يكتشفُ حيلة البُداةِ تلك، لأنهم قبل أذان الفجر يَنسلُّون تِباعًا (بعد إطفاء أزرار المُكيِّفات) ليشربوا قهوة الصباح الباكر مع التمر وحكاياتهم التي تنتهي ولا تنتهي قُرب سيَّاراتهم المركونة في الباحة.

قوَّادُ الخليقة

«عَجبتُ من إبليسَ في تِيهِهِ وخُبثِ ما أظهَرَ في نِيَّتهْ
تاهَ على آدم في سجدة وصار قوَّادًا لذريَّتهْ»

أبو نواس

هذان البيتان ـ الفاتحَة ـ كانا قفلةً اختتمَ بهما الحسنُ بن هانئ قصيدة شبَّبَ في أبياتها بغُلامٍ تمنَّع في قُبلةٍ عابرة . .

لكنهُ بعد أن أثمَلتهُ الرَّاح؛ بعد أن أثمَلتهُ التي واللُّتيَّا . .
لم يلبث أنْ مَلَّكَ الشاعرَ مهمَّة حَلِّ تِكَّةِ سرواله المربوطة
بأكثر من عُقدةٍ وعُقدةٍ تحت فصِّ سُرَّته ـ
حتى صار الغلامُ بعد حُميَّاها لا يَدفعُ عن نفسه
(ناهيك عن التكَّة التي لم تعُد مَعقودةً)
هو الذي لم يكن يأذنُ للشاعر حتى بعبور النهر
لمُجرَّد تقبيلِهِ في مطلع القصيدة.

بَيدَ أنَّ العِلَّة لم تكُن في القبلةِ المُحرَّمةِ

قبل حُميًّا الكأس

ولا في عُقدةِ التِّكةِ التي تراخت حولَ خصر الغلام

بين أصابع الشاعر الباحثِ عن فالوذج التَّحت والفوق

(كحكايته الأخرى مع أبي طَوق)...

لم تكُن العِلَّةُ، لم تكنْ في الكأس ولا في

فُصوص التشبيب

بل في مَعلولها الفلسفيِّ النَّضاح في قفلةِ القصيدة -

أما الشاعرُ والغلامُ فلا أكثر من تِعِلَّةٍ طافيةٍ

في نهر العُبور لكتابتها.

قوَّادُ الخليقة

(صِياغة ثانية)

«عَجبتُ من إبليسَ في تِيههِ   وخُبثِ ما أظهَرَ في نِيَّتهْ
تاهَ على آدم في سجدة   وصار قوَّادًا لذريَّتهْ»

أبو نواس

البيتان أعلاه كانا قفلةً اختتم بها أبو نواس واحدةً من قصائده التي شبَّبَ فيها بغلامٍ تمنَّعَ عليه في قُبلةٍ عابرة. . .

لكنَّ الغُلام، بعد أن أثملتهُ خمرة الرَّافدَين، لم يلبث أن أسلَمَ
الحسن بن هانئ مهمَّة حَلِّ سرواله المعقود مرَّتين
حتى صار بعد حُميًّا الكأس لا يدفع عن نفسه. .
هو الذي لم يأذن بتلويحة مُوافقة للشاعر
حتى يتجرَّأ على عبور النَّهر
ليحظى بقُبلةٍ لمَّح إليها في أبيات المطلع.

بالتأكيد، لم تكُن العِلَّة في قُبلةٍ كانت
مُحرَّمة قبل السَّكرة
ولا في عُقدة السِّروال التي تراخت تلقائيًا
في دعوةٍ مفتوحةٍ لأطايب التَّحت والفوق
(كحكايته في قصيدةٍ أخرى مع أبي طوق)...
فالعِلَّة لم تكمُن في زنبقة الكأس ولا في موضوعة التشبيب
بل في معلولها الفلسفي المنحوت
توريةً فضَّاحَةً في مَقفل القصيدة ـ

أما الشاعر والغلام فلا أكثر من تِعلَّةٍ
مُضافةٍ لوجهِ عُملةٍ تكاد
لا تُرى في نهر الكلمات؛ إلاّ حين يُبطئ
مَن تَأمَّلَ المعنى ليرى قفا العُملة النواسيَّةِ
علَّهُ يلتقطُ رَنينَها
بمجدافِ كلمةٍ حُذِفت عن قصدٍ من الفاتحة.

وَثَن

«ومِمَّن قال الشِّعر من أهل عُمان في القرن الثالث عشر من الهجرة الشيخ العالِم الكاتب النبيل الفصيح القاضي أبو الأحْوَل سالم بن محمد بن سالم الدَّرمكي الإزكوي، وكان مُعاصِرًا للسيِّد الهُمام حمد بن سعيد بن الإمام أحمد بن سعيد. قال المؤرِّخ ابن رزيق إن السيِّد حَمَد هذا طلب الشيخ سالم من بَلدِهِ إزكي واقرَّهُ ببلد بركا، وفوَّض إليه الكِتابة بين المُسلمين والأحكام الشرعيَّة وأمَرَ أن يُبنى له بيت خارجًا من السُّور؛ فلما كمُل بناؤه أفعَمَهُ بالأرز والتَّمر والسُّكَّر والصناديق والأواني وغير ذلك، بغير عِلم من الشيخ سالم. ولم يُخبر البنَّائين ولا غيرهم عما أضمَرَهُ بشأن هذا البيت، ثم أرسل إلى أهل الشيخ [يقصد أهل الشَّاعر أبي الأحوَل] أحدًا من أهلِ الرِّكاب ومعهُ كِتابٌ يستدعيهم للوصول إلى بركا، ونسَبَ الكِتابَ من الشيخ [أي الشَّاعر الدَّرمكي]، وأمَرَ مَن أقرَّهُم بالبيت إخبارَهُ متى وصلَ أهلُ الشيخ، كما أنه أخبر حامِلَ الكِتاب أن يُنزلَهم فيه، وأن يُخبرَه متى وصل. فلما وصلوا وأخبروا السيِّد حَمَد طلبَ الشيخ سالم ومضى به إلى البيت كانهم خارجون للنُّزهة، فقال السيِّد حمد للشيخ سالم: هذا البيت لك، هو وما فيه، ورجع السيِّد حمد ودخل الشيخ سالم البيت، فرأى أهلَهُ وما أودعه له فيه السيِّد المذكور، فحمد الله وأثنى عليه، وشكر السيِّد حَمَد شُكرًا بليغًا، فنظم له هذه القصيدة التي شاع ذِكرُها عند الأدباء، ولهجَ بها الخاصُّ والعام».

من كتاب «شقائق النُعمان على سُموط الجُمان» للأديب الفقيه محمد بن راشد بن عزيّز الخصيبي

* * *

«ما بَينَ بابَي عَينِ سَعنَة واليَمَنْ(*) سُوقٌ تُباعُ بهِ القلوبُ بلا ثمَنْ

تَجَروا بما احتكَروا بهِ وتحكَّموا فجوابُ من يَستامُ فيهم: لا ولَنْ

(*) اليمن: إحدى حارات إزكي، وعين سَعْنة موضع فيها.

المِسْكُ مِن أبدانِهم، والعُودُ من   أردانِهم، والزَّعفرانُ مِنَ الوُجَنْ
وشذا القُرنفُلِ هاجَ مِنْ أنفاسِهم   سَحَرًا، وماءُ الوردِ مِنْ عَرَقِ البَدَنْ
حازوا جَمالاً لا يُقالُ له كَما...   لكنْ بهم شُحٌّ عَليَّ بهِ كَمُنْ
ومُورَّدِ الوَجناتِ سَنَّ ليَ الجَفا   مِنهُ فحَرَّمَ مُقلتي طِيبَ الوَسَنْ
شاكَى السِّلاحَ؛ فكَم بسَيفِ لِحاظِهِ   ضَرَبَ الحَشا وبرُمحِ قامَتِهِ طَعَنْ
صَنمٌ عليهِ الخلْقُ أثنوا كلُّهُم   لولا التُّقى؛ لعَبدتُ ذلكم الوَثَنْ»

أبو الأحوَل سالم بن محمد الدَّرمكي الإزكَوي

ما الذي أبقيتَ لنا أيها الشَّاعرُ ما الذي أبقيتَ لنا نحنُ فُقراءُ أقمارِ الله، فُقراءُ قصائد النثر، فُقراءُ السَّادة السّرياليّين، وفُقراءُ ميزان التَّبَخْتُر المَيَّاس في بُحُور الخليلِ بن أحمد الفراهيدي...

ما الذي أبقيتَ لنا بعد هذه النُّونيَّة
التي سَحَرتْ غفوة الزمان
كما سَحَرتْ يقظةَ المُؤرِّخ ابن رُزيق
لينسجَ على منوالها نُونِيَّتين...
هذي التي هاج شذا قُرنفلها بِعَسَلِ غزَلٍ فوَّاحٍ
بمِسْكِ وعُودِ زعفران جَمَالٍ عبيطٍ
لا يُوصَف بأدوات التشبيه

بعد أن شاكى الأسلحةَ كُلَّها، بعد أن شاكاها
بسيفِ لِحاظِهِ ورُمحِ قامَتِهِ الطَّعَّان. . .

لنظفر نحن بما لم نظفر به أنت في سُوق القلوبِ المُباعَةِ
بين بابي عينِ سَعنةَ واليمَن
بفضل قصيدتك، بفضلها يوم أدارَ الزمنُ رَحَاهُ
يوم أدارها
لتدورَ به الرَّحى تلو الرَّحى
إثر رحيلك أنتَ وَالسيِّدُ المَمدوح
بعد أن لم تبقَ من البيتِ الهديَّة حتى إطلالةٌ
على أطلالِهِ الدَّارِسَة
لكنَّ مطلع أبياتِ قصيدتكَ أيُّها البُلبُلُ الصَّداحُ كامِنٌ أبدًا
في بُويضاءِ النُّفوس ودشاديشِها.

بعد ذلك تَسَلَّ، واسأل نفسَكَ أيُّها الشاعر:
أيُّ صَنمٍ خلاَّقٍ لأسلِحةِ جَمالِهِ أبقيتَ لنا؟
وأيُّ تُقى قد تتخلَّقُ بهِ دشادِيشُنا حين ترعوي أحيانًا
وأبدًا، أبدًا لا نرعوي عن عِبادةِ وَثنِ قصيدتك.

حاشية لفهرس المَصادر والمَراجع

إلى خميس بن راشد العدوي

فدَعِ النَّبيذ، فما يَطيبُ شرابُهُ حتى تطيب خلائقُ الجُلساءِ
فإذا ابتُليتَ به، فدونك ذو التُّقى وتنقُّهُ من سائر النُّدماءِ

العلاّمَة أحمد بن النَّظر

لا تتوهَّقْ أبداً، لا تتوهَّقْ!

ودعكَ الليلة مِن أبي مُسْلم البهلاني وفهرسِ آثاره الكؤود . .

مِن آياتِ مقصورتهِ المَرقومةِ على صفحة الماء

مِن عُود نُونيَّتهِ المِرْنانِ في بوارقه الأولى، كما في بَختَرَةِ القبائل

ومِن رُبعه الخالي حتى من أقراص بسكويت زنجبار المُملَّح . .

بسكويتها الذي لم يُضمِّنهُ مدائحَ شاهِيهِ السِّيلاني المُهرَّب

مِن منفى محمود سامي البارودي.

في مُفرد القصيدة، في مُفردها دعكَ منه
وفي المُثنى:
شمعةِ الحقيقةِ ودَرْكِها، دعكَ مرَّتين..
وثلاث مرَّاتِ دعكَ منه
في جُموع تكسير تفنَّقتْ آلاؤها
في هذه الطبيعةِ الغُبيراء
كما في حواشيها الإلهيَّةِ.

لا تتوهَّقْ!
ولا تلتفتْ إلى المَصادر والمَراجع في حاشية الفهرس
فدكَّانُها الإلهيُّ لا يبيعُ فاكهة المُعجزات..
ولكن لا بأس، لا بأس في هذه الفصحى
أن تتركَ رُمَّانة الاستعارة حتى تنضج حُبيباتُ
حِكمتها في جَبلِ اخضَوضَر واعتُصِرتْ كُرومُه
بعد أن تفلقَ جَوزةَ المَجاز مرَّتين، ثلاث مرَّاتِ
(حين تشرب شايَ الضُّحى)
لتنحَلَّ الجَوزةُ استعارةً لا ترعوي عن نايها الصدَّاحِ
بسُلَّمِهِ الموسيقيِّ
دونما حاجة لمَصمصةِ القوافي التي

مَخرَت بُحورَ الخليلِ بلا جدوى ـ
دعكَ من أحفادِ أحفادهِ العاطلين عن العمل
في أكثر مِن مَنجَرةٍ لقصائد النثر.

لا البوصلةُ ستصلُ جزيرة البَرزخ، ولا إبرتُها المُمغنطة
برواية فِرقةٍ لم تنجُ من طوفانها ـ
لأنَّ الوَحيَ والحِكمة أدارا الدَّفة سَلفًا، دونما حاجةٍ
لمَتنِ اخمضَّ في حَواشٍ شاخت من عَبث صِبيَةٍ
لن يكفوا عن حياكةِ طُرَرٍ جديدةٍ لعمائمِهم
التي لم تُغسَل بأمواهِ التُّقى في أفلاج الأئمَّة..
تمامًا، كما لن يكفُّوا عن صَنفرَةِ الأحاجي
التي مَلَّتها بَيضةُ السُّؤالِ القديم
ودَجاجتُه
بعد أن دَوَّتْ حَصاةُ الحُجَّةِ
في لُجَّةِ المِحبَرة.

أما وقد شربتَ إكسيرَ الشاي هذا..
أما وقد شربتهُ في الضُّحى دون سائر الأوقات
فدعك من العِلّة، دعك منها في هذه الهاجرة

لترْقعَها شمسُ الله على حَصير بائع الخضار . .

دعكَ منها، ولكن لا تدَغْ مَعلولها وحيدًا
يُفلسِفُ حَصاتهُ اليتيمة
في قلعةٍ على وشك الانهيار .

بعد رحيلنا يعرفون

«عندما تفكِّرُ كم كبيرة أقدامهم في أحذية المطّاط الأسود، حيث الأرضيَّة دائمًا زلِقة تحتها، بأيِّ ذكاء يتدبَّرون أن ينسلُّوا بين الشباك المبسوطة، والخيوط، والصَّنانير في أقفاص عنكبوتيَّة ذات مداخل ضيِّقة. لكنُّهم مُعتادون على هذا. نحنُ لا نعرف أسماءهم. وهُم يعرفون حاجتنا ويعيشون على هديِها، مُعيرين إيَّاها تهاويل وإغراءات لم يكن لنا، أن نُضيفها عليها أبدًا».

و. س. ميروين

هذا بعضٌ مما جاءَ في قصيدتكَ الصَّيادون

قصيدتك التي قرأتها في مقهى قريب من سُوق السَّمك

في «السِّيب» مُنتظرًا عودة القوارب لشراءِ سمكةٍ

هبط بها توًّا صيَّادٌ بإزارهِ المُخطَّط

ودشداشتهِ القصيرة، صيَّادٌ لم أعرف اسمه

(تمامًا، كما جاءَ في قصيدتكَ)

فقد كان حافيًا، ولم يكُنْ يلبسُ الحذاءَ المطَّاطَ الطويل

(وبالتَّأكيد لم يقرأ قصيدتك يا ميروين)

بيد أنَّهُ كان دمِثًا حين اتفقنا على سِعرِ

ناسبني وناسَبه

لذلك قرأتُ عليهِ ـ خلال المُساومة ـ مُختتم قصيدتِك:

«إنهم يحملون نهايات جوعنا ليلقوا بها

كي تنتظر، مُتأرجحةً، في مكان مُظلم لما كُنَّا، نحنُ، اخترناه.

بحركاتٍ لم نتعلَّمها أبدًا، يُؤمِّنون لنا القُوت.

وعندما يُغرقُهم، نُلقي بالأكاليلِ إلى البَحر».

أعجبَهُ المُختتم، فعلَّقَ بعفويَّة:

حين نغرقُ في الخليج لا يُلقون

بالأكاليل إلى البحر

لأنَّ الأحياء بعد رحيلنا يعرفون أنها ستكون دائمًا

في انتظارِنا، تلك الأكاليلُ في مُنفسَحِ

الأبديَّة.

ها قد أنهينا صفقة السَّمكة

وصديقي هذا بيَّاعُ توابل وبهارات وفلفل وجَريش

جوز هند وصَلتهُ أمس من كيرَلّا . .

رافقهُ لدُكَّانه؛ إنْ فكَّرتَ بوليمَةٍ باذخة لصديقِكَ الشَّاعِر

عَلَّهُ يكتُب قصيدةً أخرى

عن دشاديشنا القصيرة وأقدامِنا الحافيَة.

السّيب، شتاء 2012

مقهى كاف كَ.

لا . لستُ بصدد الحديث عن ذلك المقهى الشهير
قرب الحَيِّ اليهوديِّ القديم في 12 شارع سيروكا
في مدينة پراغ، ولا عن تلك التي رأيتها في مسقط وضَّاحةً
على شاشة المُخيِّلة
(بمقاعدها الخشب ومِظلاتها القُطن في الشُّرفة)
يرتادها سيَّاحٌ ألمان، هُنودٌ مُترفون بسلاسِل ذهب
وعُمانيُّون مُفلسون غالبًا برغم أنهم يُسرجُون فحيحَ
سيَّاراتهم الفاره أمام شرفة المقهى . .

دعك من الكافكاويِّين العاطلين عن العمل
حين يُقنعون ابتسامة النادلة
(بعد فشلهم الذريع في كتابةِ القصص القصيرة)
أنهم يعملون في الدِّيوان السُّلطاني أو بنك مسقط
أو ـ وفاءً لكافكا ـ في إحدى شركات التأمين

بينما يُخفون، بترفٍ مَسقطيٍّ مُزيَّف، مناديل دموعهم
خلف ابتسامات أرواحِهم المُرفرِفة
أرواحهم التي لا تكفُّ عن التدخين.

لا. لا عن هذا المقهى، ولا عن ذاك أتحدث
بل عن مقهى حلمتُ به مرارًا، رغم أنني لن أتمكَّن
من افتتاحه على شاطئ القُرم
بسبب افتقاري للسُّيولة اللازمة في حسابي
الماحِل كأفلاج هذه الأيام
دعك من افتقاري المُدقع لفنِّ إدارتها بياقةِ ابتسامةٍ مُستوردة
من النيبال أو جُزر الفلبِّين..

هكذا تناسيت، بمرور الأيام، ثومة الفكرة التي لم تعد لاذعة
كما كانت في أيامها الخوالي
رغم أنني صرت أغفلُ عن نفسي وعن قهوة البيت تنسكب
مساميرُ كآبتِها على دفتر هيمنغواي
(الذي اعتدت مؤخرًا كتابة قصائدي عليه بقلم رصاص)
قبل رَقنها على مُعالج كلماتٍ اخترعَها في الجاهليَّة
صديقي عُروة بن الورد.

بيد أنَّ بُحيرة المُخيِّلة لم تيأس من ثومة الفكرةِ

من رائحتها، بالأحرى ـ لتفاجئني بمشروع افتتاح

المقهى على هذه الصفحات

دونما حاجة لمقاعد ظليلة

أو شمس إلهيَّةٍ

مُضافةٍ إلى لوحة الترحيب بالزبائن:

مرحبًا، مرحبًا بكُم
استمتعوا بأوقاتكم السَّعيدة معنا، واشربوا فنجان قهوتكم المُفضَّل
(مع كعكة كافكا الترحيبيَّة)

أنصتوا لمقطوعة يُوهان سيباستيان باخ الخبيئة بين السُّطور..

وإن لم تجدوا، إن لم تجدوا صورة شارلي شابلن

معلقةً على حائط لوحةِ الغِلاف

تأمّلوها في مُخيِّلتكم، وقارنوها باللوحة البديلة

وابتسموا بعد ذلك

وإن أعيتكُم الحيلة ـ إن أعيتكُم لا بأس أن تُقلِّدوا ابتسامة

مُمثِّلي إعلانات معجون الأسنان في التلفزيون

شرط أن تتناسوا وقائع القصَّة التي تنتهي أحداثها

بدفع فاتورة الحساب

. . . .

. . . .

صديقكم فرانز كافكا دفعها سَلفًا.

مسقط، خريف 2011

كوخ الجزيرة

إلى عزان النعماني؛ الذي عرّفني إيّاه

هُو كوخٌ على السّاحل في جزيرة سامُوي، كوخٌ بسيط
يقدِّمُ مرارة بيرة «السِّينْغها»، عُذوبتها والطعامَ المُرصَّعَ
بثمار البَحر وأعشابه القاعيَّة...
كوخٌ أبسط من حيلة الكوخ ومن لحية البَساطة التايلنديَّة
تشذبُها أو لا تشذبها ابتسامة أغصانِ البامبو
وجَريدِ جوز الهند.

كوخٌ لو كان في الصَّحراء، لو كان في صحراء مَشقّتك
لاضطررنا حتمًا، لاضطررنا إلى تأنيثه
مرارًا في هذه القصيدة
كخيمة بدوٍ رُحَّل أو سائحاتٍ يتهادين
إلى مشارف الرُّبع الخالي بسياراتهنَّ
ذات الدفع الرُّباعيِّ ترتوي بحليب النوق حين تنتهي

آخر قطرة بنزين في خزّاناتها
كما فعلنا في حقلِ بلادك النَّفاط
ذات مرة. . .
حقلها النفاطِ بملايين الرِّيالات التي لن تراها أنت
ولا أصدقاؤك العُمّال على مِنصَّة الحفر.

بيد أنهُ كوخ بسيط كان لا بُدَّ من تذكيره في القصيدة
لتحيا الآمالُ، لتحيا الحياة أسبوعين إضافيَّين
في نعماء الجزيرة
حيث الأنخابُ بالكاد ترتوي من حُبابها الدفاق
كُلما صَدحَ بوب مارلي بأغنياته الجامايكيَّة التي
أحبَبْتها (كما أحببتَ سيجارته المُدوِّخة)، لكنك في نهاية
المطاف تعود إلى خيمة وطنك المُؤنثة في الفُصحى
باحثًا عن أنوثتها التي لم تجدها يومًا في تلك الصحراء
بل في هذا الكوخ
دونما حاجة بك لتأويل ما قاله النحويُّ
أو ما سيقولهُ خبَبًا صديقكَ البَدويُّ ضاربُ الأمثال.

جنوب تايلند، صيف 2009

مقهى الـــ(ةً)ـــاء المَرْبُوطة

في الغالِبِ يأتيها طُلاّبُ الجامِعَةِ اللبنانيَّةِ

في كَبدِ الحَمْرا الحَمْراء. . .

صَبايا لبنانيَّاتٌ بالفطرةِ والقشطةِ والزَّعْترِ والغارْ. .

غِلمانٌ مَنحُوتُون بنكْهةِ عِطرٍ زيتُونِيٍّ رَنَّحهُم بيَسَارِ الفِكرةِ

تعلو الفكرةَ فوق بُوَيْبِ المَقهى البازْ. .

كالنُّقطةِ ورفيقتها النُّقطةِ فوقَ الهَاءِ المَربُوطةِ

فقَّحَ جِنكَتَهُم تيَّارُ يَسَار.

فَحوى القِصَّةِ:

فحواها أَنِّي أنسى الفُصحى أحيانًا

لكنِّي أَتفكَّرُ في أَمرِ التَّاءِ المَربُوطَةِ بقرُنفلةِ الحُريَّةِ

وأقولُ لنفسِي:

ليسَ مُهِمًّا تعدادُ حَواسِيبِ الطُّلابِ، هَواتِفِهِم النَّقالَةِ أو

إضْبَاراتِ أَسَاتِذتِهِم تُنقَلُ بَينَ فضاءينِ

بتقنيَةِ البْلُوتوثْ ***Bluetooth***

أَتفكَّرُ ثانيةً:
ليسَ مُهِمًّا، عُصِرَت تَقنِيَةُ الزُّرقةِ سِنًّا يَلمَعُ
قَبَسًا مِن نُور الهَاءِ المَحضِ
(كَنُور شقيقتها التَّاءِ المَربُوطةِ)
أم زَحَفتْ زُرقتُها خببًا ضَوئيًّا يَتهاوى مِنْ ظُلُماتِ
عُصُورِ المَامُوثْ
إذ ليسَ مُهِمًّا - أَتفكَّرُ - تقشيرُ بُصَيلةِ هذا الأمر بسكِّينِ البَحثِ العِلمِيِّ
وليسَ مُهِمًّا أَنْ أتذكَّر
ما قد يَحدثُ في حاناتِ عَباءات الهَاءآتِ الأخرى...

فالفرقُ الفارق أَوضحُ مِمَّا قد يَبدُو للزائر:
(حِين يُقارِنُ فِكرَةَ قَمعِ مُظاهَرَةٍ للطُّلابِ بجامِعَةِ المَلِكِ فَيصَلَ
في الدَّمامِ وجامعةِ البَحرَيْن وجَامِعَةِ السُّلطانِ القابُوسْ).

أتفكَّرُ:
ليسَ مُهِمًّا، في أَمواهِ خليجٍ تَتنفطُ
ليسَ مُهِمًّا تعدادُ دشاديشِ الطُّلابِ

عَبايَاتِ بَناتِ الدَّوحَةِ، مَسقطَ، رأسِ الخيمَة والعَيْنْ
فالعَيْنُ تَرَى هَاءَ الحُريَّةِ ناصِعَةً
في مَكتبَةِ التَّاءِ المَربُوطةِ بالنقطةِ والنقطةِ
جَدَلاً ونقاشًا قد لا يُنهِي المُتغلغلَ في
مَرصُوصِ الذكرى مِن حَربِ شوارع لبنانْ.

لكنَّ العَين تراها ثانيَةً أنصع من حُريَّتِها المَوزونَةِ
إذ تَتسَامَقُ أَرزًا رَفرَفَ
في قلب الرَّايَةِ، أَرزًا لم تُخجِلْ دُكْنَةُ خُضرَتِهِ
غَيْنَ الأَحزابِ المَنقُوطَةِ بالفِتنةِ تَضفرُ شَعرَةَ
قِحفتها ليلاً لتُراكِمَها واحدةً بعد الأخرى
فوق سَمَاواتِ الأغيَانْ.

بيروت، 12 نوفمبر 2009

الثاني

ميكانيكي فاشل مطلع السَّبعينيَّات

(سِيرة مُستعادة من مُراهَقةِ السِّيرة)

في مُراهقتي المُبكِّرة انشغلتُ بأحشاءِ «لاندروڤرات» ذلك الزمان

(موديلات 1967 وما تلاها) . . .

بأحشائها اللغز تحت غطاء المُحرِّك، انشغلتُ بنشاز

سيمفونيَّة أسطواناتها الأربع، كما بعُيوبها الميكانيكيَّةِ

التي لا تنتهي في مسقط وكلكوتًّا وزنجبار

وبها عَرَبة تَرْبَعُ على أربع . . .

لأهتِف لنفسي حالِمًا ببراءةِ اختراع طفولة زمنٍ

كان على وشك الانسلاخ:

في المُستقبل سأصبحُ ميكانيكيًّا يُصلحُ في مُنفسَح «الجَرداء»

أعطال السَّيارات تحت سدرة «مقيحفة»

قُبيل بلوغ حُلقوم «وادي العَقّ» الكؤود بسبب جلاميد

امرئ القيس وأبي مُسلم البهلاني . . .

لنفسي هتفتُ حالمًا؛ بعد أن تسنَّت لي في مشقةِ رحلات شاحناتِ «البِدفورد» مُراقبة الميكانيكي حسُّون وهو يُفكِّكُ أحشاءَ سيَّارات ذلك الزمان قطعةً قطعةً بأدواته البسيطة في جراجه المُرتجَل تحت تلك السِّدرة حيث يعمل (بينما يَعبُّ من زجاجةٍ في جيب دشداشته سائلاً أوهمني أنهُ دواءٌ إنكليزيٌّ لكُحتَّهِ المُزمنة) بعيدًا عن عيون الأشياخ المُسافرين بطُررِ عمائمهم التي لم يَستجبْ حسُّون لندائها الخفاقِ برايةِ إمامةِ اضمَحلَّت ولم يبق منها سوى صلواتِ خمسٍ لم يألفها في غمرة انشغاله بإصلاح أكباد السيارات في تلك الظهيرات القائظة.

*

لم أصبح ذلك الميكانيكي لا في جراج الكلمات هذا

ولا في حيزوم سيرته المُستعادة. . .

بيد أنني في واحدةٍ من تلك الرِّحلات تجرَّأتُ لأسأله:

وماذا عن اللاندروفرات يا حَسُّون؟. .

هل هي أكثر تعقيدًا من «الغرِيبيا»؟

(لقب شاحنات البِدْفورد الشعبي، آنذاك)

فكان جوابهُ، كما كان دائماً في غياهب الذكرى

تحت سدرة جراجه المُرتجل:

أوه... لا تنشغل بالأمر؛ لا تنشغل به يا فتى. الإنكليز انتصروا على هتلر وجيوش المِحوَر حين كنا نرضعُ فواكه حليب أمهاتنا، وفي اعتقادي أنهم ما زالوا قادرين على حَلِّ مَعاضِل شاحنات البِذْفورد وهذه اللاندروڤرات. تلك صنعتهم، وقد تعلمناها منهم وأتقنَّاها في بلوشستان كما في جراجات قوَّات السُّلطان التي لم تدخَر كتائب آخر الأئمَّةِ إلاّ بمثل هذه السيارات، على كثرةِ أعطالها.

هذا أمرٌ قد لا تفهمهُ يا فتى، لكنني سأطلعك على سِرٍّ آخر
لا يعرفهُ سوى الميكانيكيِّ البارع
سِرٌّ لا يعرفه الشاهنشاه ولا حتى دهاقنة الإنكليز ودُهاتهم
لو عرفتهُ يا فتى، لكان لكَ شأنٌ وشنآنٌ في هذه الدنيا.
(أتعرف ما هو؟)..
سيَّارات «الجَرْمَن» وصنعتها المُحكَمة بمخمل مقاعدها الوثيرة
ناهيك عن خشبها الصَّندل ومعدنها الذهب الذي طرَقتهُ
في الستينيَّات بهذا المِفكِّ في مرسيدسات شيوخ
البحرين والكُويت...
معدنها الذي لو رُزتَهُ بميزان شيخ الميكانيكيَّة
لهان عليك إصلاح سيارات اللاندروڤر
لو فكَّرتَ في امتهان مهنة شريفة يا فتى.

*

الذاكرةُ خؤونٌ في استوائها، كما في عُرجون أفلاجِ الحَماسة
بيد أن الفتى في غمرة حماسة تلك الظهيرة
قال بعد أن أخطأ ـ لحسن الحظ ـ اصطياد حسُّون السِّدرة
بحُصيَّةٍ أطلقتها شيطنةُ أنشوطته:

لن أصبح ميكانيكيًّا مثلك يا حَسُّون، بل شاعرًا مُغرِّدا كطائر
الحسُّون فوق سدرة النَّبِق هذه..
شاعرًا قد تسعفه الذاكرة ليكتب، في الخمسين، قصيدةً
عن سِحر المِفكِّ الذهب واللاندروفِرات الصَّدأ
وعن أيامك ميكانيكيًّا محظوظا في ستينيَّات الكُويت
يشتري بفكَّة رُوبيَّاته الهندية
سبع سردينات من أصدقائه صيَّادي السَّاحل
(سبع سردينات، حتمًا لن يجد في إحداها لؤلؤة الفاقة العُمانيَّة)
ليتعشى بها مع عدسِ رفاقه العُمَّال وبَصَلِهم وفجلهم
في حوش مصفاة نفط الكويت.

*

لن أصبح ميكانيكيًّا مِثلَكَ يا شيخ الميكانيكيَّةِ
فالدُّنيا قد تتغيَّر في غمضةِ عَينٍ عن عينْ

قد أجلسُ في بيتي لا أفعلُ شيئًا
أو أفرنِقعُ ترحالًا في أصقاعِ الأرضِ
يُرافقني حسُّونُ السّدرةِ في أكثر من مَنفى طوعيٍّ
لأعود إلى وطني الحُلوِ المُرِّ بناي
لا يَسمعهُ أحدٌ..

قد أقعِي في حوش البيت
لكي أتسلى بإعادةِ غسل دشاديشي المكويَّةِ
لكني لن أبحث مِثلك عن لؤلؤةٍ في سردينة أيَّامي
لن أستمرئَ حتى معرفتي الجيولوجيَّة كي أحفرَ بئرًا
لاستدرار دموع النفط..

يكفيني يا شيخ الميكانيكيَّةِ في هذي الدُّنيا
يكفيني مُنفسَحُ القحط.

لن أصبحَ مثلكَ ميكانيكيًا
لكني قد أتخلَّى طوعًا عن بيت الشِّعر الموزون
وطوعًا قد أتفيقَهُ في تحبير قصيدة نثر.

ومن يدري؟ . . .
قد أتعلَّمُ في مَنجرَةِ المُستقبل
صُنع سريرٍ خشبيٍّ لـ«النهضةِ» حتى تنهضَ
من سنواتِ الغفلةِ
إن شاءتْ تقليمَ أظافر ذاك الرَّهْط

ومن يدري؟ . . .
قد آكُلُ سمكًا لم يُطهَ مع الرُّز
(يُبخَّرُ بالمُتوافر من أعشاب البحر)
مُجاراةً لتقاليد اليابانيِّين . . .

ومن يدري؟ . . .
قد أستمرئُ طعم «السُّوشِي» مرَّاتٍ
لكني قد لا أرتاحُ إليه مِرارًا
يا حسُّون السَّردينِ تُجففهُ أيامُ الغربةِ
في سِّتينيات القرن الماضي
كي أخطئ إنْ حاولتُ مُجاراة فطاحلهم
بقصيدةِ هايكو وقصيدة زَنّ
لكنَّ الشاعر يمضي

في الدَّرب المُترَبِ
يمضي للحَتفِ كقِردٍ نَحويٍّ
نحو يقين الظنّ. . .

قد لا يحظى، كالمُتنبي، بالمرسيدسِ فارهةً
في مُنتصَف العُمر
وقد لا يحظى بالدَّولةِ تنهضُ بالفقه وبالقانون
أو سيف الدَّولة يا حسُّون.
لكنَّ الشاعرَ قد يحتالُ على الفكرة كي يختال على ڤولكسڤاغنْ
خُنفسةٍ تدَّحرجُ بمُحرِّكها الخلفيِّ يُطقطق مَرحًا
في سُوح الإنسِ وسُوح الجِنّ. . .

ليُوقفها قرب البَعرة تحت السِّدرةِ، هذي السِّدرة دون سواها
حين يجيء البلدوزرُ مُكتسِحًا آخر جُلمودٍ في وادي العَقّ
لتُعبَّدَ دربٌ في سبعينيات القرن الماضي
لعباد الله
للأطفالِ على درَّاجاتِ طفولتهم
يقتطفونَ الناضج والحامض من ذيَّاك النَّبْق

لحِمار الفلاح الهبَّاط مَزارعَ واديهِ
تُسبّحُ ساعة قضمِ البرسيمِ
بقايا تقواه
لسياراتِ الأجرةِ
تتلوها سيَّارات الأجرة..
للفولفو والبي ام دبليو وكورولاّ الغلبان
للحافلة المُكتظة بالرُّكابِ الإنسِ
وأحيانًا بالجِنِّ الأشباه
لعربات الجُند مغاوير
يُحيُّون الناقةَ بارِكةً
تعبرُ فجَّ الوادي
في شاحِنةِ البَدويِّ الطَّلقْ
للشمسِ تَوضَّأُ في مِشكاةِ المُتبقي
في القلعة من فيض النور
لسيَّارات الأجرةِ بعد ثلاثٍ
عادتْ من جعلان وصُور
للخنفسةِ الحُلمِ...

وللشاحنةِ الخزان تُباريها

خَبيًا خَبيًا سيَّاراتُ السَّبقْ.

. . . .

. . . .

أتساءلُ:

هل قلتُ له ذلك في تلك السِّن؟

دراسة في تدرُّجات الظلّال المُصاحبة للإعصار

لحُسن الحظ لم أكُن جُنديًا

في جيش جنرال الكوارث الوطنيَّة

لكنني انصعتُ للإشارات المبثوثة

يومين قبل وصول عين الإعصار سواحلَ مسقط ـ

لأتزوَّدَ بمُستلزماتِ الجُنديِّ

في حربٍ خاطفة:

شموعٍ لا تذبل في الكوارث. قارورة ڤيكسْ لمقاومة نزلات برد مُخضرمة. أسپيرين لا تنتهي صلاحيته قبل عام 2013م. أقراص ڤيتامين سي (فئة ألف ملغم). بسكويت «نبيل» المَحلّي زهيد الثمن (كالذي يشتريه الأطفال في فسحة يومهم المدرسي). ثلاث عُلب تونة مصنوعة في البرازيل. خبز أسمر من مخبز حارةِ السَّعادة الشعبيَّة. حليب «أبو قوس» قليل الدَّسم. عُلبة من شاي «الوزَّة» الذي تأثرتُ بملاحةِ إشهاره المُتلفز. ثلاثة ليترات من «نبيذ المُحيطَيْن» المُستورد من جنوب إفريقيا (*لا يُباعُ إلاّ في سُوق مسقط السَّوداء التي تُديرُها بِطانة جنرالي الذي لا يشرب الكحُول!*).

غُراب إدغار آلن پو يحمل بين منقاريه علبة مارلبورو للطوارئ (برغم توقفي عن التدخين). مِظلَّة واقية من المطر في بلادٍ مُشمِسةٍ حتى في فجر قصائد الشباب المُرتجَلة لمُغازلةِ فتاةٍ فاتتها حافلة المدرسة الثانويَّة. نقود من آلة بيع النقود (عَ ـ الحِساب) ومياه معدنيَّة خالية من أشباه المعادن القابلة للطفو في عجمان، بندر عبَّاس وجزيرة مَصيرَة...

فضلاً عن مذياع بحجم راحة اليد يعمل بالبطاريَّة
لمتابعة الحدث، في حال انقطاع الكهرباء...

ولا بأس ـ في حالةِ طوارئ كهذه ـ من إضافة تفصيل
زاخرٍ بفاكهة التَّقوى
علَّهُ يُفرِحُ شيخي ضارب الأمثال:

مُصحف مُصغَّر بحجم 12 × 7 سم على شاكلة طبعات
كَراتشي التي يُقبلُ عليها الحُجَّاجُ الإندونيسيُّون
لا لأقرأ على رُوحي الفاتحة، بل سُورة البقرة بحذافيرها
جرفتني أم لم تجرفني دوَّامةُ الإعصار.

❊

بيد أنَّ ساحة المعركة لم تحتدم إلاّ في غُرَيْفتي المُكابِرة
في حَيِّ الأنصَب
بنافذتها المفتوحة على حديقة صغيرة كبُرت أشجارها
فجأةً خلف الزجاج ـ، كأنما بمُعجزةٍ سَماويَّة
جعلتني أُتمتِم:
(هل أفلحَ دُعاءُ حُجَّاج جاكرتا؟). . .

وسلاحي ـ إن كان لا بُدَّ من غُبار معركة ـ لم يتعدَّ مُتابعة
تدرُّجِ ظِلال العاصفة الماطرة
لسبب لم ينشغل به الجُنديُّ السَّاذج
حين لم يتفكَّر مَليًّا في خطط جنرال الكوارث الوطنية
ولا فيما قاله الشاعرُ الشيوعيُّ ردًّا على بلاغة واشنطن
في مُقتطف حربها الهطَّال من عناقيد عاصفة الصّحراء:

«الجَنرالون لا يعرفونَ من أديمِ الأرض سوى بُعدَين:
ما نتأ، حِصنٌ
وما انبسطَ ساحة.
يا لجهلِ الجَنرال!».

لكنَّ الإعصار (برغم التكهُّن الرَّسمي الحَذِر) لم يَصل في

وقته المُعلن في الرَّاديو والتلفزيون

لذلك وجد الجنديُّ وقتًا كافيًا للتفكُّر مَليًّا في مُعجزة اخضرار حديقته الغُبيراء طوال استرساله في قراءة «مديح الظلّ» الوارف بين صفحات كتاب جينيشورو تانيزاكي، غافلاً عن تدرُّجات لون بياضٍ باهِتٍ امتصَّهُ حاجزُ «السُّوجي» الوَرقيُّ خلف النافذة في غُريفته، كما في كتاب المديح...

كأنما ليقرأ التفاصيلَ اللاحقة

ليس في مُعترَك عُبور إعصار فيت *Phet* الخاطف

بل في بيت فلاحٍ ياباني تراءى لهُ في دُكنةِ ريفٍ غامض

لن يُفصِحَ عن مكنونه فلاحُ كتاب المديح

قرأهُ الجنرالُ أم تجاهله مُعجَمُ لهجتهِ الرِّيفيَّة.

بيد أن الكهرباء انقطعت بالفعل!

انقطعت، ولم يتمكن جُنديُّ الغُريفة من متابعةِ سَيلِ التحذيرات

ورايات الإرشادات الخفاقة في معمعة التلفزيون ـ

كما أنهُ لم يستفد من راديو الترانزستور

(الذي نسيه في السيارة)
لتبتلَّ أحشاؤهُ وتَنفثِئ، كما انفثأتْ حُشاشة
بطاريَّتيه الصَّغيرتين . . .
لذلك أضحى «مَديحُ الظلِّ» حَبلَ نجاة الجُنديِّ
ليس في المعركة (التي لم يخضها)، بل في الحديقة التي سرَّبت
بَصيص ضَوءٍ ازدوجَ ليتسرَّب من غلالةِ النافذة
وكِتاب المديح.

بصيصَ ضوءٍ علَّمهُ الحيطة على عَجَل ليضع منشفة قطنٍ سوداء
(كغراب إدغار آلن پو الذي ذكَّره بسرقتها
قبل عامين من فندق في كمبوديا)
لفرط إعجابه برسمة الفيل القطنيِّ المَنسوج
على حافتها اليُسرى ـ
ليضعها تحت النافذة لامتصاص قاطور الإفريز
ليس بخاصيَّة وبَرها القُطنيِّ، بل بخصيصة خرطوم
فيلِها الشفَّاط في الغابة، كما في أفلام الكرتون
التي لم يُشاهدها الجُنديُّ في طُفولته . . .

ليكتشف بعد حَماقةِ غرقه في جماليَّاتِ الظلِّ المُمتدَح

(في يابان القرن التاسع عشر)

بُحيرةً صغيرةً وسط الغرفة كادت أن تُغرق

أصدقاءهُ المُفضلين:

الفرسان الثلاثة، آخاب موبي ديك والأخوة كارامازوف ـ

بعد أن تشبَّع خرطومُ فيل المنشفة بمياه الإعصار

دون أن يستلهم الجُنديُّ السَّاذج خطة طوارئ

لا لينقذ أصدقاءهُ فُرسان الكُتب

بل لصياغة مقطعٍ شِعريٍّ يليقُ

بحَرَج المُناسبَة.

❊

عندها توقفتُ عن القراءة لأعصر المنشفة خمس

أو سبع مرّات متتالية، دونما فائدة

لتتملكني هشاشةُ الشعراء لتغضُّن نقشة الفيل القطنية

بسبب فيضان غُريفةٍ في بلدٍ قاحِل

حين بدت النقشةُ باكيةً ـ ليسَ بأمواه بُحيرة الإعصار ـ بل

بدموع أطفال كمبوديا الفقراء المساكين

قبل أن ألعن غُراب إدغار آلن پو، وعلبة السَّجائر التي جعلتني

أستلُّ واحدةً لأشعلها مع كأس نبيذ شجعتني رشفاته للعودة

إلى ما انتصفتُ إليه في كتاب الظلِّ المُمتدح ـ

لأصغي في الصبيحة التالية
(بعد أن دبَّتِ الحياةُ في أسلاك الكهرباءِ)
إلى انتصارات الجنرال يُلعلِعُ بها مُذيعُ
التلفزيون مُرفقةً بصُور مروحيَّاته التي بَاضت المُؤن
في قرى الوديان، مثلما دثرت الأطفالَ
ببطانيَّات الحُكومة الكمبوديَّة
بعد انزياح عَين الإعصار وانحرافها نحو پاكستان.

❋

أخيرًا اطمأنَّ الجنديَّ ولم يعد في حاجة لشيء
عدا المزيد من قشطة طمأنينةٍ باردة
من هُويتِف حبيبته
دون تأنيب ضمير قد يُلاحقه:

لأنه سَرق فيلاً منقوشًا في منشفة اختلطت في وَبَرها
دموعُ أطفال كمبوديا ببُحيرة غُريفته
ولأنهُ لم يستلهم قِصار السُّوَر

في مُصحف حُجّاج جاكرتا
ولم يحتكم لحكمة مديح الظلِّ
في يابان القرن التاسع عشر
ولم يُقاوم تأثره السَّاذج بإعلان
شاي الوزّة المُتلفز
ولم يتأكد من خلوِّ مياه الوديان
من أشباه المعادن القابلة للطفو
ولم يُمحِّص الخصيصة المُزدوجة
للمِظلّة الواقية من المطر
(في بلادٍ ستشمسُ بعد يومين أو ثلاثة)
فضلاً عن أنهُ لم يُشارك، أصلاً، في المعركة

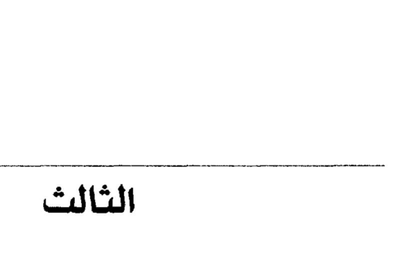
وتلك مَثالبُ مثالِبه...

فالجنرالُ اكتفى بأوسمة رُسوخ
سيزول قريبًا
بيد أنَّ جُنديَّ الغُريفةِ ظلَّ حائرًا
بعد المعركة لا يعرفُ من أين تُؤكَلُ
كتفُ إعصارٍ عابر

لأنه لم يفقه قطّ مُعجزة الجَنرالات
في الحُروب كما في الكوارث
لا لأنهم عُميان طاعةٍ بالفطرة
بل لأنهم لا يعرفونَ من أديمِ الأرض سِوى بُعدَين:
ما نتأَ بُرجُ قبيلةٍ مُراقبة، وما انبسَطَ سُويحُ مَعرَكة.

يا لجَهل جُنديِّ الغُريفة!

4 يونيو، 2010


الثالث

سينما التيبّت المُتحرِّكة

(تعليق على فيلم وثائقي)

ثمَّة طقسٌ سنويٌّ تنتظره أصيافُ قُرى التِّيبت
الخبيئة في وديان الهيمالايا:
رحلات المَشَّاء توتو ومُساعده پولا للعروض
السينمائية المتحركة...

هكذا شاهدتهما في فيلم وثائقي
يمشيان (مشيةَ المُعلِّم وتابعهِ المُريد) على قدميهما
مسيرة يوم ونصف بين قرية وأخرى يتبعهما
بَغلاهُما المُحمَّلان بأثقال الترحال:
(مُولِّد الكهرباء ـ آلة العرض ـ مُضخِّمات الصَّوت ـ بَكَرات
الأفلام والشاشة المَطويَّة في خُرْج القافلة)...

هكذا يمشيان يومًا بعد آخر من قريةٍ لأخرى
في رحلات صَيف تُتوَّجُ بتنافس القرويِّين لاستضافتهما

تدليلاً لسِحر شاشتهما التي سيُفرَشُ بياضُها على جدار
حَجريٍّ أمام ساحة عرض مُرتجَلة في قريتهم المُنعكسةِ آلهتها
ذهبًا سيَّالاً من قمَّةِ إيفرِسْت ـ
لتبدأ فصولُ الإثارة، لتبدأ فصولها المُنتظرَة بمجرد أن
يُشغِّلَ المُعلِّم توتو مُولِّدَ الكهرباء
خلف زريبة الماشية
بينما يلفُّ مُساعدُهُ (معصوب العينين) شريط السَّهرة المُنتقى
حول بكرتي آلة العرض.

ساعتها تكتملُ طقوسُ العرضِ السِّحري
لولا أنَّ الأطفالَ لن يكفوا عن
سؤال العَمّ توتو: لم عَصبَ پولا عينيه؟
فيجيبهم:
ليكون بارعًا في مهنة الضَّوء، بارعًا حتى في الظلام.

تُطفأُ قناديلُ الكيروسين، يُكبَسُ الزِّرُّ ليتدفقَّ شلالُ ضوء
يغمر الشاشة بأحداث فيلم «الكونغ فو»
بألوانه، بأغانيه الصِّينية، بلكماته البارعة، بحبكة القصَّة
تلتهمُها حِداقُ الشيوخ المُقرفصين على العشب

وليمةً مُدَّ بساطها عَموديًا على الجدار. . .

ساهين عن عيون أطفالهم (المشقوقة جُفونها بالكاد) تختزن

ما عَصبَ پولا عينيه من أجله:

ألوانَ حياة ما عَهِدوها تتراقصُ أمامهم وَمَضاتٍ سريعةً

لن تمحوها ممسحة رحلات الرَّعي الصَّباحيَّة الرَّتيبة

كأنما ليطمئنُّوا على ما حدث وراءهم هناك

في بئر العالم المجهول

تحت سقف العالم.

لم يَنتهِ الفيلمُ الوثائقيُّ بعد!

لم تنتهِ حكاية العرض الساحر ولا حُمَّاهُ التي لم تقتصر

على الواقف والمُقرفص في السَّاحة:

فالماعز والعُجولُ الصَّغيرة اشرأبَّتْ أعناقُها

من الزريبة (خلال فُسحة تغيير آخر بَكراتِ الفيلم) لمُتابعة

الأحداث حتى النهايَة المَتبوعَة بلقطاتٍ مُقرَّبَة لماو تسِي تونغ

مُبتسِمًا يُحيِّي الجماهير. . .

في تلك اللحظة؛ اغتنمَ ديكُ القريةِ الفُرصة ليعتلي
جدار الشاشة نافِشًا قوسَ قُزحِ ألوان ريشه
ليفاجئ الجُلاّس بسَقعَاتٍ ماويَّةٍ مُتتابعة مُعلنًا انتماءهُ
للحِزبِ الشيوعي.

سيِّدة المائدة

ربَّةُ البيت في هذه القصيدة
سعيدة بالبَيض الذي تجدهُ كُلَّ صَباح في القُنّ..
ودجاجتها البيَّاضة أكثر سعادةً بكمشةِ الحُبوب
التي تنثرُها السيِّدةُ بسخاء
في حوش القصيدة، لكن القصائد الأخرى في ورشة الشاعر
لم تكترث لما كان على وشك الحدوث
بسبب انهماكها في مساعدته
على وضع نقطة الخاتمة بعد تنقيحها...

والشاعر في غمرة انشغاله
لم ينتبه لفطنة دجاجة قصيدته التي ما إن لمحت
لمعة السّكين في مِئزر السيِّدة حتى سارعت للفرار
بجناح الكلمات قبل أن يتفيَّق ليخرُجَ
بفنجان قهوته الصَّباحي

من المطبخ إلى الحوش مُسلحًا بعُدَّةِ التشذيب والتنقيح

لأنَّها حدست أنَّ حتفها

بمُجرَّد اكتمال قصيدتها حتمًا سيحين

لتكُونَ هي سيِّدَة المائدة.

البَصَلة بعد تقشيرها

لذكرى هادي العلوي

«افعل الأقلّ فالأقل حتى تستكمل اللافِعل
وإذ لا تفعل شيئاً؛ فلن يبقى شيءٌ غير مفعول
العالَمُ يقومُ على ترك الأمور لمجاريها، ولا يُمكن
أن يُدار بالتَّدخُّل».

لاوتسه

الحِكمةُ التاويَّةُ خادعة
على بساطتها التي
قد لا يَرى الحكيمُ عُمقها الدَّفين
برغم كُمونِهِ في البساطة
ذاتها . . .

خادعة كبَصَلة الحَقل تُذكِّرُ

بالعَرق والدُّموع

ومع ذلك

لا تُظهِرُ لؤلؤتها الخبيئة

للفلاح

لأنَّ الجَوهرَ

لم يعُد في اللُّبِّ

(إن كان موجودًا!)

بل في اللاّفِعل:

علم تقشيرها أصلاً!

سِحر صيني

قبل تريُّضي الصَّباحي اعتدتُ اختلاس نظرة إلى صديقي
الحكيم جَلاّس القُرفصاء
(في لوحته المرسومة بحبرٍ صينيٍّ)
قربَ باب الغرفة.

حين أعودُ مُنهكًا بعد ساعة
أُخرِجُ من العلبة ثلاثة أو أربعة أقراص من البسكويت
لأنهمك في إعداد كوب شاي بالحليب
أشربه بهدوء مع سيجارة الصَّباح الأولى والأخيرة.

حكيمُ اللوحة المَمهورةِ
بواحد من أختام الأباطرة الصِّينيَّةِ الحَمراء لا يكتفي
باختلاس نظرة عابرة؛ بل يَرمقُني بعينيه الثاقبتين
من خَلَل الدُّخان

لدرجة أنني أرتبك ولا أنتبه ليده التي
تمتد خفيةً من اللوحة
لفتح مصراعي النافذة
ليحُطَّ عُصفورُ حديقة الجيران على الطاولة
ناقرًا حِصَّته من نِثار البسكويت
بمُجرَّد اختفائي لرَيِّ الحديقة.

أنا وعصفور الجيران لم نعد ذينِك المُختلسين
بل صديقين دبغتهما ألفة الحِكمة
لدرجةِ أنَّ أحدهما يكتبُ قصيدةً
هذا الصَّباح، بينما يخفقُ الآخر بجناحيه
أمام لوحة الحائط
امتنانًا مُزدوجًا لشيخهما حكيم اللوحة.

التَّيس

في ربيعها العَربيّ هتفت جماهيرُه:

«ارحل»، لكنه لم يرحل. طيِّب! «ارحل من أجل المُستقبل».

راق لهُ الهُتاف هذه المرَّة فرحَّل فكرة رحيلِهِ إلى الأبد،

مُستمسِكًا بعُروته الوُثقى: آخر ورقةٍ في خريفه.

قفلة منحوتة

نحَتَ مايكل أنجلو تمثالاً لأحد بابَوات الفاتيكان، لكنه حين تأمَّل تِمثاله المَنحوت اعتقد أنَّه لا يُشبِهه أبدًا.

هذا ما قرأته اليوم في كتاب لن يُنسيني قفلة الفنَّان المنحوتة جوابًا أفحمَ البابا:

عاجِلاً أم آجِلاً سَتُشبهُ قداسَتُكُم هذا التمثال!

الرَّابع

مُستعمرة مُؤقتة

إلى سماء عيسى

«ليَ خلف السَّماءِ سماءٌ لأرجع، لكنني لا أزالُ أُلمِّعُ
مَعدِنَ هذا المكان».

محمود درويش

ليس أبدًا في تلك المُستعمرة الغارقة
في دموع بحَّارتها حين ينسون أبجديَّة أسمائهم على اليابسة
ليس في تلك المُستعمرة المُؤقتة
ولا في سِجلٍ خطاياها المليء بالأخطاء ـ
بل في مراثي راينر ماريا ريلكه تصلُ جَبَّانة المَجاز
مُتأخرةً عن إيقاعها السَّماويِّ
لتقتفي رائحة المَعنى المُغلغل في قلعةٍ لم تُرمَّم أبراجُها
لاصطياد وديعة البرتغاليين المُنحلَّة في قنطرةِ اللغز.

ليس في تلك المُستعمرة، ولا في سجلٍ خطاياها
ففي الطوفان، في طوفان الآتي حدثت أشياء كثيرة
ما زالت تحدث في الماضي
ولكن بصيغة المُستقبل، بصيغته المُستعادة في مُخيخ خروف
طال انتظاره شاحِذَ السّكين
لتنفلق حُصيَّةُ قُليْبِهِ قبل اقتراب خطوة الجَزَّار
من حبل مَربَطه
بعد أن استكنهَتْ ضربات هيتشكوك التي لا تُرعِب
لأن ما يُرعِبُ هو انتظارها!

سننتظرُ إذًا، سننتظر؛ عَلَّ ذئبَ المُستعمرة
حين يتملى الخريطة
بعين أسلافِهِ العوراء يهتدي إلى دروبها المُعبَّدَةِ
بقرنفلة الذهَب، لا لينجو بغنيمة الجغرافيا
بل ليستعيد مَلَكَتَهُ على كتابة التاريخ بالمقلوب:

سقوط دون قيامة

سقوطٌ قد يُغنيهِ عن فكرة الجَزَّار

أو تشويقِ النهايات في أفلام هيتشكوك

دعكَ مِن حُصيَّةِ قلبِ الخروف تبدو صقيلةً على الشاشة

بعد تطوافِ طُرقاتُهُ مَسدودةٌ، مفتوحةٌ كُلُّها. . .

لأنَّ جمرة الحقيقة لن تُستنطق في البئر

ولن تُترك على السَّطح

تذرو رمادها في مرآةٍ مكسورة لن ترى فيها

حتى شبح انعكاسها المثلوم.

من، إذًا، سيتكفَّلُ برَتقِ النهايات؟ من سيُجصِّصُ تماثيلَ الأمثولة. .

(في الواقع، كما في الأفلام!)

ولو بأقلِّ خسائر القوافي المُتبقية في دَواةِ الأسلاف ـ

إن كان لا بُدَّ من رُقعةٍ، من ريشةٍ تُغمسُ في دَواتها

من فأسٍ ومِن حَطَّاب نهايات

قد يتحاشى شجرة البداية، قد يتحاشاها مرَّةً

حتى لا يَفلعَ ظِلَّها المُستلقي تحتها

على مفرش اليابسة

قد يتحاشى الظلَّ، قد يتحاشاهُ لكنهُ لن يستبقي

شجرة النهاية في النهاية. . .

والقصيدة لن تنتهي بنقطة تختتم سطرًا يتيمًا كهذا

فقد أضيفت إلى سِجلِّ الخطايا

وسَلفًا، سَلفًا أُغلِقَ ذلك الكتاب.

مسقط، خريف 2010 ـ صيف 2012

المُفرنقِعان

إلى صالح العامري

«ووسطَ هذا كلِّهِ حَزنْبَلٌ، وعرانيسُ ذرةٍ، وقفزةٌ كقفزِ الكُنغُرِ،
وطُهاةٌ أيضًا، ونعيمٌ منهوبٌ، وحُليٌّ، وقياثِرُ، وقناديلُ بحرٍ
بهلامٍ أنقى، ومُجذِّفون بمجاذيفَ من عِظام، ولواجِمُ، وقرّافاتٌ،
وحجارةٌ للجَلْخِ، وسُروجٌ، وموائدُ مُموَّهةٌ بشرابٍ مُموَّهٍ،
وأكبادٌ، وزيزانٌ ضليعةٌ كالظهيرةِ في اقتسامِ الجهاتِ، وبنادقُ،
وورّاقونَ، وعَدَمٌ قيّافٌ ـ؛
وسطَ هذا أنينٌ يحنو على القَهْقَهة.
والغدُ على حالِهِ: فنارات غارقةٌ، ومُلوكٌ موعُودونَ
بشعُوبٍ أقلَّ ضَجَرًا».

سليم بركات، البازيار

I

أنّى افرنقعنا، طوعًا أو كرهًا، عن قرطاجنَّةِ البلاد

رغمًا عُدنا إليها . . .

بعُدَّةِ الكلمات تمرحُ في كفٍّ، بالشيطان الطفل
يتباكى في الأخرى
لا هي ترعوي، ولا نحن، مهما افرنقعنا، غربًا أو شرقًا
قَرَصاتُ جحيمِها مُكتنَزةٌ أبدًا في مخمل حناناتِ سيَّال
من مَراقي قصائدك كما هو نضَّاح من بيارق صَنفرَتها
مَرابعُ قصائدي.

بيد أنَّ نهر العلاقة (سيَّالاً كان، أم نضَّاحًا) لا يرعوي
ولا يستقيم في أقراطِ جنَّتهِ المقلوبة
تلك التي ننساها مرارًا وتكرارًا
ليتفيقه آخرون في أنخاب تذكيرنا بها، حتى تقسو فينا
حناناتُ صَنفرَة المَراقي والمَرابع في الجَحيم
لنفرنقع هربًا في واحدةٍ من صَفحات **لسان العرب**.

II

معًا كُنا النقيض لما توسَّمهُ آباؤنا وأشياخ المساجد الطِّين
حين مُنحنا اسمي نبيَّين لم يحمِيانا من لُجَّة غرقٍ باذخ
بعد أن تلهَّينا بقراءة الفاتحة

لنكتبَ في شرنقة البدايات قصائد عموديَّة وقصائد تفعيلة
لم نلبث أن نثرناها في غرناطةِ حدائق بُعد رابع.

لا بأس، إذًا..

فلنفرنقع أكثر وأكثر، يا صاحبي، في المِمحاةِ وقلم الرَّصاص
ولندَّعِ في محكمة التُّقاةِ والجُناة أننا ناقة الله وسُقياها
حين تعلو وتعلو المُوسيقا
(وليس المُوسيقى التي لا تُحبُّ ألِفها المقصُورة)
بل تلك الممدودة
خببًا في سرياليَّة أمواهٍ ما خانتْ
بَغرةَ ناقتِها في البيداء
تلك المنسيَّة (مُدَّت، أو قُصِرتْ) في رمل إلهٍ يتوضّأ
في لُجَجٍ سِيقتْ من بَحرينْ لكي يتأمّلَ
في قلبِ الوَحدَةِ صَحنَ خليقته الوَضَّاء

قد نصحو أو لا نصحو من تلك السَّكرةِ

(هلْ كُنّا مُتصوِّفةً؟)...

فالموسيقا الليلة في رأسِ حِمارِ السَّاح
اخضرَّتْ أَلِفًا في يَاء
وازرَقَّتْ بَحرًا أقعى في مَهمَهِ صحراء.

III

هل هي لعنتُنا المُزدوجَة في حانةِ «القِطِّ العِشرقيِّ»؟
اللعنة التي سيتناساها النُّحاةُ واحدًا تلو الآخر
إثر أوباتهم من قاموس ابن منظور ملطَّخِين برنين الفشل
مُقرقِعًا في قعر دواةٍ جفَّ حِبرُها قبل بَصْقةِ النقطة الأخيرة
في كتاب الأحياء والأموات، كِتابهم المنسيِّ على سُويحلِ
نسيَ الكلام بعد أن ترمَّلتْ شفتاه لفرط بلاغة طبيعته
التي لم نعد في حاجةٍ إلى رنين خلاخيلها
كما لم يعد السيَّاحُ الرَّاطنون بلغاتٍ أخرى يُفرطون في تأويل
منجم البلاغة ذاك
قدر حاجتهم لبيرة مثلجة في صلالة أو زجاجة نبيذ
في الجبلِ الأخضر أو رأسِ الحَدِّ
(حيث السَّلاحفُ البحريَّة، وحدها تُؤكِّد وجود الله وتنفيه)

. . . وبالتأكيد لن يُمانعوا ـ بمجرَّد وصولهم واحدًا من مُخيمات رمال وهيبة ـ دفعَ بخشيش مصحوب بابتسامةٍ شفوقٍ للنادل القادم من تشيتاغونغ، بعد إمتاع سهرتهم بنجوم وحكاياتٍ كانت مُربحة لصديقه سائق ركشة كلكوتًّا السِّحرية مقابل لا شيء في الغالب، أو مقابل يورو ـ إن تمادوا في ألف ليلةٍ ـ أو دولار مُضاف إلى بضعة روبيَّات ادخرتها جيوبهم من رحلات سابقة في سريلانكا والنيپال.

IV

نحن سلاحِف دهريَّة
لأنَّ صاحِبَ البازيار استشرفَ في استوكهولم منفاه؛ أننا لسنا
شعراء قانطين أو ساخطين في بحَبوحَةِ الوطن ـ
مثلما أُشيع في حانات مسقط العامرة بعسس استمرأوا تلك الإشاعات
مثلما استمرأوا مَرارة البيرة
لدرجة أنَّنا هتفنا معه في نيقوسيا:

(أيُّها الموت، يا أسمالاً على كتفينِ قويَّتين؛ يا مِمحاةً ترتجفُ، وياقوتةً غير مُثبتةٍ في الخاتم على نحوٍ مُحْكَم؛ يا مُبدِّدًا نفسهُ بين الألقاب، كأنَّما سلوقيٌّ يجرُّكَ لاهِثًا، وكأنَّما ذاكِرتُكَ تتراءى قِططًا مقذوفةً من الشُّرُفات. أيُّها الموتُ، يا غريقًا تمتدُّ إليهِ الأيدي كُلُّها، خفِّفْ مُسَاءلاتِكَ قليلاً).

بيد أن غباءهم لا يكفُّ عن استفزاز مَواتِنا
لدرجة أننا أفلسنا ذات مرَّةٍ بالفعل، برغم تدبُّرنا مسألة الرِّيالات
المُزخرفة بمآذن سَمَنتٍ وصواري
سُفنٍ إمبراطوريةٍ غربت
برغم فُيوضِ استنهاضِها التي لم تُفلح
في ركاكة القصائد العصماء.

نعم. أفلسنا، لدرجة أننا فقدنا سرجي حصانينا
المُطهَّميْن أمام الحانة الإنكليزيَّة
لولا أنَّ الغزالَ قام بمهمَّته الشاقة في رحلات السَّفاري
برغم فشلنا في كتابة قصائد قد يُدبِّجها
عَروضُ مديحٍ أو هجاءٌ عارِض...
فاطمئناننا كان دائمًا وسامَ استحقاق في «كتاب اللاطمأنينة» -
أحفادًا لا أندادًا لفرناندو پيسّوا يتغنون بشتائمهم
في حانات لشبونة لما تلاشى من الإمبراطورية
البحرية البُرتغالية
تلك التي شاهدنا غرقها في مرآة جناسٍ مُفارق يبدو أن أحدهم
مسحه من قلعة الجلالي.

V

صحيحٌ أننا لم نتجاسر لعبور هواء المُحيط في مَرْكب الهند
(أبو دقلين؟)
كما لم نتجاسر على دخول قلعة البرتغاليين/ السِّجن المُرعب
اكتفاءً ببقايا سردينة تاريخ يُبِّس، على عجل، في أفران نهضةِ
الميكرُويف
لتشبه أو لا تشبه بسْرَة تكسَّرت بين رَحَى الآباءِ
ورُحيَّةِ أحلامِهم
قبل تصديرها إلى الهند من بلدتي المُضيرب أو بلدتك شناص
التي راقت لك ترجمتها (في إنكليزية شكسبير) لتصبح في واحدة
من المُصادفات اللغويَّة المُخاتلة:

By Chance!

مُصادفة لم تلبث أن خاتلتنا، هي الأخرى، لتفرنقعَ عنا
حتى رَابَتْ فكاهةً استحلبناها، بعد سنوات، من حنانات أبقار
سجائر كيمجي رامداس
في حانات مسقط العامرة بأولئك المُخبرين الذين لا يفعلون شيئًا
عدا كرع البيرة مجانًا ـ على حساب الدولة ـ لمُراقبة شعراء

أصابهم الملل والغثيان من كلِّ شيء
وما عادوا يمتدحون، وما عادوا حتى يَهجُون. . .
دون أن يُدركوا مُنزلَق الفرق بين البرتغال والبرتقال طازجًا تعصره
زوجاتهم كُلَّ صباح قبل انغماسهم في تلك القيلولات التي
(أين منها قيلولات كولونيلات غابرييل ماركيز وجنرالاته؟)
يرضعون فيها غباء بيرتهم
ضليعين كانوا أم لم يكونوا في مَحْتدِ الجيِّد والرَّديء منها:
هولنديَّة صفراء بفقاقيع حَبَبها، أم إيرلندية سوداء يتخفَّون
خلف قناعها الإيرلنديِّ الدّسم
عِوضًا عن المُجازفة بانتحال نظّارات مُخبري جمال عبد الناصر -
افرنقعَ المرءُ أم لم يفرنقعْ عن صاحبيه، فالأمر سيَّان.

VI

الأمرُ، إذًا، لو قِسناهُ بمنظار صاحب اللسان ابن منظور
تكفيرٌ طفوليٌّ عن ذنوب كِدسَةِ القواميس
التي قرأناها مُبكِّرًا، لا لنبحث عن:
افرنقعَ يَفْرنقِعُ، إلخ. . .
بل لإرشاد مُخبري الحانات إلى مُنفسح النوم طويلاً
على وسادة نزار قباني، عوضًا عن «مديح الظل العالي» الباهِت

لكننا تكاسلنا عن مهمة العاطلين تلك
لننشغل بلعبة البحث عن مَعنيي بلدتينا الصَّغيرتين
علَّهما تَردانِ مُصادفةً في اللسان، قبل أن نفرنقِعَ إلى
مَسقطِ اسَّاقطت
علينا ظهيراته المُذابة، سَلفًا، في مديح ظلّه
المُقابل لشموسه الكاذبة في زنجبار
كما في خورفكّان (بخطئها اللغوي الفادح)، ولم نجد في
قرطاجنَّة ظِلالاً تشفي غليل قريتينا
من ظِلال الأسماءِ وشموسها الكاذبة.

VII

هكذا نسينا، بالأحرى تناسينا البحث في اللسان
ليُنقذنا خطأُ بلدة أحمد راشد ثاني من
فداحته اللغويَّة؛ ليُؤوِّلَ الخطأ بصحيحِهِ المقابِل
على بساط الفارسيَّة ذات سهرةٍ طالت
حتى استمرأ الشاعرُ فيه تقُّولَ مَعنى لم نبحث عنه
في الإمارات ولا في ساحل عُمان المفرَنقع
من خنجرهِ إلى صَقرِه:

«افرنقِعوا: انكشفوا وتنحَّوا عني»

أما نُونُها ـ كما أضاف اللسانُ في خورفكّان ـ فزائدة

ولا محلَّ لها من الإعراب حتى في أمثولة حبيب بن أوس:

«ألذ مُصافاةَ من الظلِّ في الضحى». . .

لأن اللعبة انتهت

كما ستنتهي غدًا عُجمةُ قصائدِ الهايكو

لنستطرد، بعد لأيٍ ولأي، فيما جاء بعد استشهادٍ

بليغ لسركون بولص بأبي تمَّام:

المَجهولُ لن يُستضافَ مرَّةً أخرى، أما الخسارة فضيِّفاها

ولكنْ لا تُقيما لها وليمة.

مسقط، شتاء 2008 ـ كوتْشانغ (جزيرة الفِيل)، صيف 2012

شاعِران ومَلِكان

إلى زاهر الغافري

«أيُّها الضَّحك العارف! يا ضحِكَ الأموات

فلتقشِّر لنا هذه الفكاهة».

سان جون پيرس

I

تصعدُ الليلة، الليلة تصعدُ بسُلّم موسيقيٍّ

في مَالمُو *Malmö* المَنقوطة

لتخدعني شجرة الأمثولة حتى هنا ـ

على بُعد أمتارٍ من أقدام الآلِهة في الهيمالايا...

تمامًا كما تفكِّهنا في مسقط القصيدة الموزون

ومهبط أبياتها المُخمَّسِ على كثبان الكِنايةِ والتَوريَة

دون أن أرى خديعة الشاعر عاريةً

على سرير الفصحى كما رآها
ديكٌ في وادي سَمائل كاد أن يُؤذن لصلاة الفجر
بتوقيت زنجبار المُحلّى بجَوز الهند.

II

بسُلَّمِ موسيقيٍّ عارٍ من شجرة استعارة تعرَّت
من أوراقها الذهبية قرب المَرعى...
من مزمارها الصَّندل لا يتعرَّى على سرير الفصحى
بل يتحجَّر كدمعة المنفيِّ في رُخام موزارت ـ
لأراها بعينيَّ هاتين في تِمثالِهِ النصفيِّ
(الذي أهديتنيه)
بينما كان يُصغي بأذنيه الرُّخاميتين لريشة الصَّمتِ
وحيدةً في قلب سُلَّمِها المُوسيقيّ
تتأمل رعيان ڤيرجيل المُكحَّلين بوَسامَةٍ أبديَّة
فيما يعزفون عن معزوفتهم القديمة ـ
ليس هنا في كتمندو، ليس هناك في زنجبار
بل في المَنقوطتين:
مسقط ومالمو.

III

بسُلّم مُوسيقيٍّ تصعدُ الليلة، الليلة تصعدُ سَقفَ العالم
حالِمًا بقلب الحَصَاةِ التي سَحَرها مُغيَّبٌ مَسحورٌ
قرب مَجرى الفلَج
ثلاث مرّات X نصف قرن X قرية سُرُورٍ واحدة
بعد أن تلاشى دَوِيُّ الحَصَاةِ التي لمستها يدُ الشاعر
بثقة مَلاكٍ تعَمَّمَ بقوّة الألم ـ لتنتهي الحَصَاةُ
زهرةً بيضاء في خاتم البئر.

حتى جاء يومٌ كسَائرِ الأيام في قرية السُّرور تلك
لولا أنَّ دجاجات زنجبار اقتنعت بفحولة الدِّيك
الذي اعتاد تأخير الأذان في برزخ التَّقوى
بين نزوى ووادي سمائل ـ
لا ليلقحهنَّ دجاجةً بعد أخرى، بل ليُنقِّحَ على ضفاف الأفلاج
كِتاب المُعجزة..
كتابَها الذي أنساكَ مفاتيحَ بيت العجايب قبل أن تواصل
الرِّحلة التي لم يكُنْ شذى استعارات قرنفلها الحِرِّيف
لينتهي ـ أو لا ينتهي ـ في لسان قصيدة واحدة.

IV

هكذا، بخطوة واحدة، عبرْتَ أرضَ الألم وأرض الغفران
لتصلَ، في نهار واحد، سَقفَ العالَم
كأنما بقوَّةِ التخاطُر المُوزَّع بين قارَّتين فَصَلهُما رُبعُ قرن
من كافاتِ التَّشبيهِ
التي لا تُحصى في قصائدك، كما لا تُحصى فراسِخها
في مُنعطفات المُحيطات الحادَّة. . .
لتصلَ الهيمالايا أخيرًا، لتصلها على طَوف نوح جديد
(طوفٍ لم يُفكِّر فيهِ حتى الأب يوسف سعيد)
بعد أن تهادتْ إشراقات رامبو طواعية إليك
ظافرًا بمِفتاح طنجة المُمغنط بالذهب
برغم نسيانك لشحنة القرنفل في عدن ـ
لتواصلَ الرِّحلة التي انتهت أمام بوّابة مَسقط
المُحاصَرة بعلامةٍ من إمامةِ الكِتمان
لتقولَ بعد لأيٍ ونأي:
وداعًا، وداعًا أيتها البلاد!
مُؤرجحًا تلويحة العَرَّاف فانوسًا لا تُحصى علاماتهُ
في فخمة الأبديَّة

كأنما لتصحو الحياةُ أخيرًا من سرير أحلامها
بعد نصف قرن وسبع وخمسين قصيدة.

فقِصَّة الدِّيك ودجاجاته لم تعد في سُلَّمِ أولويَّاتِك
تمامًا كما لم يَعُدْ استنتاجُنا الاستنهاضيُّ السَّاذج
حول شحنة القرنفل التي نسيتها في عدن
ذا أهميَّةٍ تُذكر.

V

هكذا استعرْتَ قوّة النسيان
ـ حَجَرَ اللطافةِ هذا ـ
وطفقتما أنت ومَلِكُ السُّويد تقودان دراجتيكما الهوائيتين
(دونما حَرَس مَلكيٍّ)
في الممشى إلى جامعة لُوند *Lunde* حتى أعيتكُما
أميالُ لامُبالاة الشّعب
لتستريحا في مقهى ساحة الجامعة إلى فنجاني قهوة إيطالية
مُتحَدِّثَيْن بلثغة المُلوك والشعراء
حين تتبادلان حَبَبَ الزمان مُذابًا في صِيغةِ عرشٍ

أو سيرة كتاب لن يتبقى منهما
في فنجان المُصادفة
سوى حديثكما عن قسوة الرِّيف السُّويدي في الشتاء ـ

بينما تشيران إليَّ صغيرًا كالنُّقطة في صحيفة الـ *Expressen*
(نقلاً عما أوردَتهُ الـ *Himalayan Times*)
نتنفسُ ـ بالكاد ـ أنا ومَلِكُ النيپال آخر قارورة أوكسيجين
قبل أن أقرأ على مَسامع جلالته تحت قمَّة إيڤرست
فكاهة الصَّفحة الأخيرة:
«في السّويد: الملكُ والشاعرُ يشربان القهوة في الشارع».
لتخفيف إسهاب جلالته
في تكذيب تقارير المُخبرين وتصديق
مانشيت الـ*Himalayan Times* حول آخر
رَكلات الثوار المَاويِّين لثكنات العَسكر في كتمَندو...
....
....
بينما تشربان قهوةً إيطالية بنكهة اللوز في لُوند
مُشيرَيْن إليه صغيرًا كالنقطة
في بحر الإكسْپرسّنْ

بعد أن دفعتما حسابيكما للنادل

وطفقتما تقودان دراجتيكما

(ملكًا وشاعرًا)

نحو مكتبة الجامعة

سادرَيْن عن سُلّم موسيقيٍّ

يَصعدُ الشمال السّكندنافيّ

كما يهبط بحصان الأمثولة من الهيمالايا

إلى ما لانهاية. . .

كتمندو، ربيع 2005 ـ باريس، صيف 2008

صدر للمؤلِّف

- **عيون طوال النهار**، شعر ـ الدار البيضاء 1992.
- **كُلُّ ليلة وضُحاها**، شعر ـ كولونيا 1994.
- **أبعد من زنجبار**، شعر ـ القاهرة 1997.
- **فُسيفِساء حَوّاء**، قصيدة ـ طبعة محدودة، مسقط 2002.
- **لُعبة لا تُمَلّ**، شعر ـ كولونيا 2005.
- **عين وجناح**: رحلات في الجُزر العذراء، زنجبار، تايلاند، ڤيتنام، الأندلس والربع الخالي ـ طبعة أولى، بيروت/ أبوظبي 2004 ـ طبعة ثانية، كولونيا (ألمانيا) 2008 ـ طبعة ثالثة سبتمبر 2009، صدرت ضمن مشروع «كتاب في جريدة» الذي ترعاه منظمة اليونسكو UNESCO.
- **الآثار الشعرية لأبي مُسْلم البهلاني**، تحقيق ودراسة، بغداد ـ بيروت 2010.
- **ورشة الماضي**، أوراق في السَّرد، الشعر، السِّينما، والترحُّل، بيروت 2013.
- **تنقيح المخطوطة**، رواية، بيروت ـ بغداد 2013.



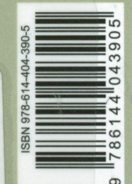
قفلة منحوتة

نحَتَ مايكل أنجلو تمثالاً لأحد بابَوات الڤاتيكان، لكنه حين تأمَّل تِمثاله المَنحوت اعتقد أنَّه لا يُشبِهه أبدًا.

هذا ما قرأته اليوم في كتاب لن يُنسيني قفلة الفنَّان المنحوتة جوابًا أفحمَ البابا:

عاجِلاً أم آجِلاً سَتُشبهُ قداستُكُم هذا التمثال!




ISBN 978-614-404-390-5
9 786144 043905